

سلسلة أنوار الهدى (١)

الإمام جابر بن زيد الأزدي

(توفي عام ٩٣ هجرية)

الدكتور/ صالح بن مطر الهطالي

سلسلة أنوار الهدى (٢)

الإمام جابر بن زيد الأزدي

د. صالح بن مطر الهطالي

www.alhatali.com

بريد إلكتروني: saleh@alhatali.com

تويتر: @smalhatali

جميع الحقوق محفوظة وسجلة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

رؤى

واتساب: ٩٧٥٤٩٢٢٣

ruaadar@gmail.com

تويتر: @ruaadar

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدى
مركز غاية المراد للصوتيات والمرئيات
سلطنة عمان - نزوى
هاتف رقم: ٢٤٤١٠٨٧٣ - فاكس رقم: ٢٤٤١١١٩١
هاتف الإدارة: ٩٩٨٩٩٨٣
E-mail: ghayatamurad@gmail.com
مكتبة وتسجيلات غاية المراد



مكتبة غاية المراد
GHAYAT AL-MURAD BOOKSHOP

مكتبة السيدة فاطمة الزهراء
هاتف: 92908620
25434506 92988061



مكتبة
غاية المراد

تنفيذ طباعين

دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان / بئر العبد - هاتف: ٣٤١٣٢٥٦ ٠٠٩٦١

موبايل: ٣٩٠٢٩٤٤ ٠٠٩٦١

E-mail: dar.alkari2012@gmail.com

بغداد - العراق / شارع المتنبج مدخل جديد حسن باشا

موبايل: ٧٧٢٢٢٩٧١٢١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





عُقْبَىٰ مَحَبَّتِهِمْ عَفْوٌ وَغُفْرَانٌ

أُولَئِكَ الْقَوْمُ أَنْوَارِي، هُدَيْتُ بِهِمْ

أبو مسلم الرواحي



تقف السيارة، وينزل منها شابٌ في الأربعين من عمره، عليه جلال العلماء ووقار الصالحين، وينزل معه شابٌ أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، ويدور بينهم الحديث الآتي:

أحمد: لا بُدَّ أن هناك سببًا لإحضارنا لهذا المكان يا أستاذي.

الأستاذ: أجل يا أحمد. هل تعرفون اسم هذه القرية؟

سعيد: أنا أعرفها يا أستاذي. إنها قرية «فرق» في ولاية نزوى.

الأستاذ: أحسنت يا سعيد. وشخصيتنا التي أريد أن أحدثكم عنها لها علاقة بهذه القرية.

ناصر: ربما تقصدُ الإمامَ جابر بن زيد يا أستاذي.

الأستاذ: نعم يا ناصر، فهذا الإمام العظيم وُلِدَ في هذه القرية، وقبر ابنته لا يزال موجودًا فيها إلى يومنا هذا.

محمد: وفي أيِّ سنة وُلِدَ الإمام جابر؟

الأستاذ: لا نعرف بالتحديد سنة ولادته، ولكن يُذكَر أنه ولد بين عامي ١٨ - ٢٢ للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

سعيد: وهل يعني هذا أنه من الصحابة يا أستاذي؟

الأستاذ: لا يا سعيد؛ فالصحابي هو مَنْ أدرك الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإمام جابر وُلِدَ بعد وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه



أدرك كثيرًا من الصحابة، كما سنذكر فيما بعد، ولذلك يُعدُّ من كبار التابعين، ومن المحتمل أن يكون والده صحابيًا لأن الجصاص روى للإمام جابر حديثًا يرويه عن أبيه عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول فيه: ((سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مُحْرِمٍ أَتَى بِلَحْمٍ صَيْدٍ يَأْكُلُ مِنْهُ...))^(١)، وصيغة «سُئِلَ» قد توحي أن أباه كان حاضرًا مجلس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أحمد: سمعتُ أن الإمام جابرًا قد بلغ شأواً عظيماً في العلم، فعلى من تلقى تعليمه في عمان؟

الأستاذ: الحقيقة أن الإمام جابرًا لم يتلقَّ تعليمه في عمان، وإنما سافر إلى البصرة مع والده وهو صبي، وكانت البصرة حاضرة العلم والعلماء في ذلك الوقت، وفيها تزوَّد بالعلم والمعرفة وخصوصًا ما يتعلق بعلوم القرآن والحديث، وكان يتردَّد في تلقيه للعلم بين البصرة والحجاز، واشتهر بالحرص الشديد على طلب العلم فكان يُكثر من الأسفار في سبيل ذلك، وتعلَّم على أيدي كثير من الصحابة والتابعين وأخذ عنهم الحديث والتفسير واللغة والأدب، ويقول عن نفسه: «أدركتُ سبعين بدريةً فحويتُ ما عندهم إلا البحر»^(٢)، ويعني بالبحر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقد أجمع

(١) أحكام القرآن، الجصاص، ج ٤، ص ١٤٨.

(٢) العقود الفضية، الحارثي، ص ١٠٤.



علماء الحديث على عدالته وضبطه.

ناصر: أ تقول يا أستاذي إنه أدرك سبعين صحابياً؟

الأستاذ: لا يا ناصر، إنه أدرك سبعين صحابياً ممن شهدوا بدرًا، وأدرك الكثيرين غيرهم.

سعيد: وعلى من تلقى أكثر علمه يا أستاذي؟

الأستاذ: أكثر من نقل عنهم العلم هم: عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، والمسمى بحَبْر الأمة، وأم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وعن أبيها، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وغيرهم كثير رضوان الله عليهم أجمعين. كذلك، كان ينتهز موسم الحج للقاء الصحابة والعلماء، وهو صاحب صلواتٍ قوية بعلماء عصره كعكرمة مولى ابن عباس ومحمد بن سيرين وصديقه الحميم الحسن البصري.

محمد: وهل كان علماء الحديث يأخذون بالروايات التي يرويها عن صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الأستاذ: بلا شك يا محمد؛ فالعلماء الذين عاصروا الإمام جابرًا، وعلماء الحديث والجرح والتعديل الذين جاؤوا بعده جميعهم يعتبرونه من الثقات البارزين، بل من أكثر علماء



عصره رسوخًا في العلم^(١)، واعتبروا روايته عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا من أصحَّ الأسانيد^(٢)، ولذلك تجد معظم كتب الحديث تنقل الكثير من رواياته.

أحمد: ومع مكانته العلمية، فلا شك أنه كان أيضًا على درجة عالية من السموِّ الأخلاقي، فهل لك أن تُحدِّثنا عن ذلك يا أستاذي؟

الأستاذ: نعم يا أحمد، لم يكن الإمام جابر ممَّن يجمع الأموال، بل تدلُّ الأخبار على أنه كان قنوعًا عفيفًا، متواضعًا، زاهدًا في الدنيا، مقبلًا على الآخرة، وكان كما وصفه ابن سيرين: «مسلمًا عند الدينار والدرهم»^(٣)، وكان غاية في الأخلاق وحُسن العشرة.

ومما يُذكر في ذلك أن زوجته آمنة خرجت ذات مرة إلى الحج، ولم يخرج الإمام جابر معها تلك السنة، فلَمَّا رجعت سألتها عن صاحب القافلة، فذكرت سوء الصحبة ولم تُثنِ عليه بخير، فخرج إليه الإمام جابر، وأدخله دارًا، واشترى لإبله علفًا، وهبًا له طعامًا، ثم اشترى له ثوبين كساه بهما، ودفع له أجره أخذ زوجته آمنة معه إلى الحج، فقالت آمنة للإمام جابر: «أخبرتُك بسوء الصحبة ففعلتَ

(١) الإمام جابر بن زيد، أبي داود، ص ٧٦-٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٨.

(٣) حلية الأولياء، الأصفهاني، ج ٣، ص ٨٩.



ما أرى»، فقال لها: «أفناكفئه بمثل فعله فنكون مثله؟ لا بل نكافيه بالإساءة إحساناً وبالسوء خيراً»^(١)، وقال يوماً لأصحابه: «ليس منكم أغنى مني، ليس عندي درهم ولا عليّ دين»^(٢).

محمد: قلت يا أستاذي إن الإمام جابراً كان يتردد بين والبصرة والحجاز، فلماذا اختار البصرة على غيرها من البلدان؟

الأستاذ: كما تعلمون يا أبنائي أن حال الأمة الإسلامية قد بدأ يتغير بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاصة بعد الفتنة التي وقعت في عهد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وانتقلت الأمة الإسلامية بسببها من خلافة راشدة إلى ملك عضوض قاد زمامه بنو أمية، ولذا حمل الإمام جابر بن زيد وأقرانه أمثال سعيد بن المسيب والحسن البصري وسعيد بن جبير وغيرهم مسؤولية إعادة مسار الأمة إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين.

ناصر: لازلت يا أستاذي لم أفهم لماذا اختار الإمام جابر البصرة على ما سواها من البلدان.

الأستاذ: إذن، دعنا نرجع إلى الوراء قليلاً. ربما سمعتم عن الفتنة التي وقعت في الأمة في خلافة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بخروج معاوية بن أبي سفيان عليه، وكان الإمام

(١) السَّير، الشماخي، ج ١، ص ٧٠.

(٢) الطبقات، الدرجيني، ج ٢، ص ٢١٣.



علي هو الإمام الشرعي، ثم ما جرى من حرب الإمام علي لمعاوية، ثم ما قام به معاوية من خُدعة رفع المصاحف، ثم اقتراحه تحكيم حكمين لاختيار إمام آخر للمسلمين، ورضى الإمام عليٌّ باقتراح معاوية ذلك.

هنا، رأت طائفة من أصحاب الإمام علي أنه برضاه التحكيم يكون قد خلع نفسه من الإمامة الشرعية التي بايعه المسلمون عليها، ولذلك اعتزلوا جيشه إلى مكان يقال له «**حروراء**»، وانتظروا نتيجة التحكيم، وسُمِّي هؤلاء بالمحكِّمة، ولما ظهرت النتيجة بتنحية الإمام عليٍّ وتولية معاوية، عندها أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي إمام دفاع، ثم دعوا الإمام عليًّا ليدخل تحت إمرته فأبى، فأوعز إليه الأشعث بن قيس أن يقاتلهم، وهذا كان من أنصار معاوية ولكنه اندسَّ في جيش الإمام علي، وذلك ما كان من وقعة «**النهران**» التي قُتل فيها عبد الله بن وهب الراسبي ومعظم أصحابه^(١).

كانت رغبة عبد الله بن وهب الراسبي وأتباعه أن يعيدوا إلى الإسلام سيرته الأولى عن طريق إفهام الناس فكر الإسلام الصحيح، ولذلك كان أهل الدعوة أو جماعة المسلمين، كما كانوا يُسمُّون أنفسهم، وعلى رأسهم زعيمهم أبو بلال مرداس بن حُدَيْر التميمي، يعرضون آراءهم على مَنْ يَرَوْنَ

(١) الفرق بين الإباضية والخوارج، أطفيش، ص ١٤-١٦.



فيهم الصلاح والاستعداد لقبولها، وكان من أهم مبادئها الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة دون التعرُّض للناس أو رفع السيف في وجه أحد، وكان الإمام جابر بن زيد مَمَّن اقتنع بتلك الآراء وأيَّد أبا بلال، وسار سيرته.

ونظرًا للمنزلة العلمية التي كان يتمتع بها الإمام جابر بن زيد في البصرة، قدَّم أبو بلال وأصحابه الإمام جابر بن زيد إمامًا لهم، وانضوا تحت لوائه^(١)، فكان أبو بلال لا يُبْرِم أمرًا إلا بعد استشارة الإمام جابر، وكان على علاقة وطيدة به؛ فكانا يتصاحبان إلى مكة المكرمة خلال موسم الحج، ويلتقيان بعبد الله بن عباس وعائشة أم المؤمنين، ومن دلائل حبهما لبعضهما أن أبا بلال كان يفارق الإمام جابر بعد العتمة، ويأتي إليه قبل صلاة الفجر وكله شوق وتلهُّف للقياء.

أحمد: وهل كان العلماء الآخرون يشاطرون الإمام جابرًا ذلك الفكر؟

الأستاذ: نعم وإن اختلفت طرقهم؛ فكلُّهم كانوا على اتفاق بأن مسار الأمة قد تغير ولا بُدَّ من إرجاع المياه إلى مجاريها، ولا تنسوا أنهم كانوا يعيشون في البصرة التي هي جزءٌ من العراق، وكان الوالي عليها من قِبَل الدولة الأموية في ذلك الوقت عبيد الله بن زياد ومن بعده الحجاج بن يوسف

(١) الأصول التاريخية، خليفات، ص ٧.



الثقفي اللذان أذاقا الناس عامة والعلماء خاصة وإبلاً من العذاب والاضطهاد، وكانت الدولة الأموية - أحياناً - تصف الإمام جابراً وأصحابه بالخروج (أي تنسبهم إلى الخوراج) لتنفير الناس عنهم، ويكون ذلك مُبرِّراً كافياً لها إن أرادت أن توقع بهم ما تشاء من العقوبات.

محمد: وكيف استطاع الإمام جابر العيش في البصرة وولاية بني أمية وعيونهم عليه بالمرصاد؟

الأستاذ: الحقيقة أن الإمام جابراً قد أعطاه الله من الخصال ما جعله يجمع بين إمامة الدين والدولة؛ فهو من ناحية سهل المراسم، متواضع الجانب، حسن العشرة، ومن ناحية أخرى حباه المولى سبحانه بمكّاتٍ وقدراتٍ إدارية وسياسية جعلته يُحسن التعامل مع الناس، ويستطيع تسخير المواقف والأحداث لما يسعى لتحقيقه، إضافة إلى أنه كان أيضاً على درجة عالية من الفهم لواقعه وما يجري فيه، وذلك كله أهله ليكون محبوباً لدى الناس، قادراً على درء الشكوك والعيون عنه وعن جماعته وأتباعه.

كذلك، كان هو وأصحابه يقظين لما يدور حولهم؛ ولذا اتخذوا السّرية وسيلة لنشر مبادئهم وأفكارهم، التي هي في الحقيقة أفكار الإسلام ومبادئه، ولا تنسوا أن أحد مسالك الدين عند الإباضية هو الكتمان.

سعيد: وإذا كانوا على غاية من السّرية، فلماذا سماهم الآخرون بالإباضية؟



الأستاذ: تلك التسمية تدلنا كثيرًا على أنهم كانوا في غاية السرية؛ وذلك لأن بني أمية سموهم بذلك نسبة إلى عبد الله بن أباض الذي كان واحدًا من علمائهم، ولكنه لم يكن إمامهم الديني ولا السياسي، ولا المتحدّث الرسمي باسمهم، ولكنه كان على تواصل مع الملك الأموي عبد الملك بن مروان، وكان عندما يُقدّم نصائحه له يتكلّم باسمهم فظنوه إمامهم، ولا تذكر الكتب الإباضية أية مسائل فقهية له، وأما هم فكانوا يُسمّون أنفسهم أهل الدعوة أو جماعة المسلمين، ولم يظهر مصطلح الإباضية في مصنفاتهم إلا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

محمد: هل يعني هذا أن الإمام جابر بن زيد وأتباعه لم يعرف عنهم ولاية بني أمية شيئًا؟

الأستاذ: كما قلت فإن الإمام جابرًا كان على درجة كبيرة من العلم والهمة والنشاط في نشر الدعوة وإرسال الدعاة إلى مختلف الأمصار، وكان يستعمل التمويه والتقية الدينية لصرف أنظار ولاية بني أمية عنه وعن أصحابه، ولذلك كان يصلي الجمعة في المسجد الجامع في البصرة خلف زياد بن أبيه وولده عبيد الله والحجاج^(١)، وكان يُدكّر أصحابه الدعاة المنتشرين في الأمصار في رسائله إليهم بالتزام السرية، وعدم فعل أو قول ما يمكن أن يُشير إلى دور الإمام جابر أو وجود تنظيم

(١) معارج الآمال، السالمي، ج ٥، ص ٧٨.



سياسي له ولأصحابه، ورغم تلك الاحتياطات إلا أن ابن زياد قام بحبسه وبعض أصحابه، ثم أخرجه بعد ذلك.

ولما ولي الحجاج أمر البصرة، سلك الإمام جابر معه مسلك التمويه والتقية؛ فكان يُصلي خلفه، وعاتبه أصحابه على ذلك، فقال إنها صلاة جامعة وسنة متبعة، وكان يزور الحجاج ويتردّد عليه، وأراد الحجاج مرة أن يُؤلّيه القضاء، فاعتذر الإمام جابر إليه بلباقة، فصرف الحجاج نظره عنه.

ومع التزام الإمام جابر الحكمة في الدعوة إلا أنه لم ينج من بطش الحجاج، وخاصة عندما هُزمت جيوشه في عمان على يد سعيد وسليمان أبناء عباد بن الجندى، فأخذ يبطش بالأزد الموجودين في البصرة، وتنكّر لآل المهلب بن أبي صفرة، وكانوا زعماء الأزد العُمانيين في العراق، وحرّض عبد الملك بن مروان ضد يزيد بن المهلب والي خراسان، حتى زجّ به وبأسرته في السجن.

ولم يكتفِ الحجاج بذلك، وإنما قام بحبس بعض أتباع الإمام جابر مثل ضمّام بن السائب وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وصحار بن العباس العبدي وغيرهم، ولكن الحجاج ما حبسهم بدليل يبيّن أو تُهمة محقّقة، وإنما لارتيابه في أمرهم.

سعيد: وإذا كان هذا موقف الإمام جابر من الدولة الأموية وموقف الدولة الأموية منه، فماذا عن موقفه من الخوارج؟



الأستاذ: سؤالٌ وجيهٌ يا ابني. منذ أن اقتنع الإمام جابر بأفكار المحكمة، خطَّ لنفسه وأتباعه أن يسيروا سيرة المصطفى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ، وكما تعلمون فإن هَدْيَ النَّبِيِّ الهادي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في لَمِّ الشَّمْلِ وتَأْلِيفِ القُلُوبِ، ولذلك كان الإمام جابر حريصاً أن يبقى على تلك السيرة العطرة، وكما ساءه انحراف بني أمية عن منهج الإسلام في الحكم، ساءه كذلك منهج الخوارج الذين قاموا بتشريك المسلمين المخالفين لهم، واستحلوا دماءهم، واستباحوا أموالهم.

كان الإمام جابر يخرج لمناظرة الخوارج - ومنهم الأزارقة -، ويُبَيِّن لهم بالحجج والبراهين أن المخالفين ليسوا مشركين، ولا يجوز قتلهم واستحلال أموالهم وفروج نسائهم، وكان أصحابه يسرون سيرته في التبرُّؤ من الخوارج، بل إن بعضهم مثل جعفر بن السَّمَاك والحُتَات بن كاتب قاتلا مع حبيب بن المهَلَّب في حربه ضدَّ الخوارج وقتلوا معه^(١)، وتبرأ الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي فيما بعد من بعض أتباعه الذين سلكوا مسلك الخوارج في تشريك أهل القبلة^(٢).

أحمد: هل لك يا أستاذي أن توضِّح لنا أكثر عن اهتمام الإمام جابر بإعداد الدعاة وحملة العلم؟

(١) العقود الفضية، الحارثي، ص ١٥٠.

(٢) السَّيْر، الشماخي، ج ١، ص ١١٠.



الأستاذ: أحسنت يا ابني، واعلموا يا أبنائي أن الدرجة العلمية التي ارتقى إليها الإمام جابر، وما كان يتمتع به من فقهٍ واسعٍ في فهم الواقع وسياسة الدين والدولة، كل ذلك جعله يُفني حياته في إعداد أتباعه الذين سيحملون أمانة بقاء هذا التنظيم الحركي (الإباضية) من بعده؛ فقام بأعمال تنظيمية لا يفتن إليها إلا مَنْ آتاه الله من الحكمة وحسن التدبير، ومن ذلك:

١- كان من منهج الإمام جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأتباعه في عصره وبعد مماته الاندماج مع المجتمع ومخالطة الناس، وعدم الانفصال عن المجتمع أو الترفع عن الناس، وهذا أكسبهم فهمًا لواقعهم، واحتكاكًا بالناس، ومعرفة بأحوالهم ورغباتهم ومشاكلهم، مما ساعدهم على نشر آرائهم بينهم، «ولم يُمْتْ جابر بن زيد إلا وقد غدت الدعوة الإباضية عبارة عن حركة إسلامية شاملة، اجتذبت عناصر مختلفة من قبائل وأجناس متعدّدة»^(١)، وهذا على عكس ما انتهجته الفرق الأخرى من اعتزال مجتمعاتهم لاعتقادهم بشركيتهما، حتى إنهم سنّوا الهجرة منها، وعدم البقاء فيها، مما ساعد على كراهية الناس لهم، وتفرد السلطة بهم، مما سهّل القضاء عليهم.

٢- قَسَمَ الدروس والمجالس التي كان يلقيها لأتباعه إلى

(١) الأصول التاريخية، خليفات، ص ٢٥.



ثلاثة أنواع: مجالس لقادة الدعوة، ومجالس لحملة العلم، ودروس للعامّة، وكانت هذه الدروس والمجالس تُحاط كما ذكرتُ بدرجة عالية من الكتمان والتخفي، سواءً من الإمام جابر نفسه أو من أتباعه، وكان يحضر دروسه العامّة بعضٌ ممّن هم غير محسوبين على الإباضية مثل قتادة وابن دينار وحيّان الأعرج^(١).

٣- كان تركيز الإمام جابر على الأزدي؛ نظرًا لما تلعبه العُصبة القبلية في ذلك الوقت من حماية وظهير للإنسان، وأيضًا ربما لكون الإمام كان يُخطِّط لشرع دعوته في الأمصار البعيدة التي يكثر فيها الأزدي مثل عمان واليمن، وربما كان يريد أن تكون عمان هي مركز الدعوة، ولذلك كان أبرز قادته من الأزدي؛ مثل ضمام بن السائب وأبي نوح صالح الدهان وأبي مودود حاجب الطائي، وبسبب هذا الاهتمام برز بعده العديد من أزدي عمان المشهورين مثل الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي ومحبوب بن الرحيل.

٤- اهتمَّ الإمام بإعداد رجاله ليحمل كلُّ منهم مهامًا محدّدة في الدعوة؛ فكان منهم الفقهاء الذين يحتاج إليهم التنظيم الحركي ليسيروا به وجهة شرعية منبثقة من تعاليم الإسلام الصحيح، وليشكّلوا لأتباعهم من بعدهم مرجعية دينية وفقهية لها كيانها واستقلالها التشريعي، ومن هؤلاء الفقهاء

(١) الإباضية مذهب إسلامي معتدل، معرّب، ص ٥٠.



الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التيمي وضمَام بن السائب وجعفر بن السماك العبدي وصحار بن العباس العبدي، وأبو مودود حاجب الطائي وغيرهم.

وصل هؤلاء إلى مستوى من العلم شهد لهم به علماء عصرهم وأئمة الجرح والتعديل؛ فأبو مودود حاجب الطائي - مثلاً - قد وثَّقه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل^(١)، وقد حفظ جمع الإمام جابر وأتباعه بين الفقه في الدين والسياسة الحركة الإباضية منذ نشأتها من الانزلاق نحو التطرُّف والغلو، الذي - عادةً - ما يكون منشؤه الجهل أو قلة العلم، وحملهم هذا الرسوخ في العلم للالتزام بالسلوك الإسلامي المعتدل حتى مع أعدائهم في المعارك.

٥ - هناك من قادة الدعوة مَنْ كان يمارس أكثر من وظيفة قيادية وتنظيمية؛ فأبو مودود حاجب الطائي كان مسؤولاً عن شؤون الدعاة في الأمصار، وفي الوقت نفسه كان مسؤولاً عن جمع المال والمعونة للدعوة، وأيضاً حلَّ الخصومات بين الدعاة، وضمَام بن السائب كان فقيهاً بارعاً، وكان من أكثر أتباع الإمام جابر رواية عنه، مما جعل الإمام أبا عبيدة لاحقاً يُحيل الناس إليه ليستفتوه، وفي الوقت نفسه كان ضمَام من أبرز قيادات الدعوة، وذلك ما جعل الحجاج يشكُّ في أمره، ويسجنه مع صاحبه الإمام أبي عبيدة مسلم،

(١) تهذيب التهذيب، العسقلاني، ج ٢، ص ١٢٢.



وجعفر بن السَّمَاك العبدي كان سياسيًا مُحَنَكًا، مما جعل الإمام أبا عبيدة يُعَيِّنُه زعيم الوفد الذي أرسله لمقابلة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٦- بعد تكوين الدعاة فقهياً وحركياً، قام الإمام جابر بيثهم في الأمصار لنشر دعوة الحق، ومن هؤلاء يزيد بن يسار ومالك بن أسيد اللذان أرسلوا إلى عمان، وعنيفة الذي أرسل إلى خراسان، وغيرهم كثير من أمثال طريف بن خليد وسالم بن ذكوان وعبد العزيز بن سعد وعبد الملك بن المهلب، وكان الإمام جابر على تواصل معهم، وكثير الكتابة إليهم، وكان يطلب منهم أن يكتبوا إليه بأحوالهم وحوادثهم، وكان - كما ذكرت - يُذَكِّرهم بعدم الإفصاح بشيء عنه أو عن أمور التنظيم الحركي الذي يترأسه، ومنعهم حتى من نشر فتاواه التي كان يُرسلها إليهم أو الإفصاح عنها، وفي الجانب الآخر كان الدعاة حريصين على التواصل المستمر مع إمامهم، يستفتونه في دينهم، ويعرضون عليه أحوالهم، وأحياناً يطلبون منه حل ما يقع بينهم من خلافات وأحوال^(١).

٧- كانت دعوة الإمام جابر منبثقة من الكتاب والسنة عقيدة وفقهاً ومنهجاً؛ فالإمام نفسه لم ينضم إلى جماعة القعدة مع أبي بلال وأصحابه إلا باقتناعه أن تلك الجماعة

(١) رسائل الإمام جابر بن زيد المحفوظة في المكتبة البارونية بتونس.



تسعى لتطبيق شرع الله من خلال الكتاب والسنة على أرض الواقع، وإرجاع حال الأمة على ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه، وكل ذلك تجلّى في نزاهة الإمام جابر وأتباعه وعدالتهم، سواء الذين كانوا في زمنه أم الذين جاؤوا بعده، والذين كان الإمام دائم التذكير لهم بالله وعقابه، وتخويفهم من الوقوع في مزالق الظلم والاعتداء على الناس.

ناصر: هل لك أستاذي أن تضرب لنا أمثلة على درجة السرية التي كان يتمتع بها الإمام جابر وأتباعه؟

الأستاذ: أحسنت يا ابني. لقد كانت دعوة الإمام جابر وأتباعه تسير في طور الكتمان؛ وهو الطور الذي يكونون فيه على درجة عالية من السرية، لأنه لو كُشِف أمرهم لاستطاع ولاية بني أمية القضاء على دعوتهم، وأصبح طور الكتمان (أو إمامة الكتمان) أحد مسالك الدين عند الإباضية.

أما عن سرّيتهم وتكتمهم على أنفسهم وجماعتهم، فسأضرب لكم بعض الأمثلة عليه:

أولاً- كان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة العماني يقاتل في جيش الأمويين، وتولى فيما بعد ولاية خراسان، ولكن أسرة المهلب كانت معظمها إباضية حتى إن عاتكة بنت المهلب أخت يزيد كانت تمدُّ الدعوة الإباضية بالمال، وكان الإمام جابر يزورهنَّ ويستفتينه ويحجبهنَّ على أسئلتهنَّ، فتقول



هند بنت المهلب: «كان جابر بن زيد أشدَّ الناس انقطاعاً إليَّ وإلى أمي، وكان لا يعلم شيئاً يُقربني إلى الله عَرَجَلٌ إلا أمرني به، ولا شيئاً يباعدني عنه إلا نهاني عنه، وكان ليأمرني أين أضع الخمار»^(١)، وتضع يدها على جبهتها، وهذا يدلنا على درجة السُّرية التي وصلوا إليها، والتي جعلت أسرة آل المهلب تسير على فكر الإمام جابر دون علم يزيد بهم.

ثانياً- كانت الدروس والمجالس التي يعقدها الإمام جابر مع أتباعه تحاط بغاية من السُّرية حتى إنهم كانوا- أحياناً- يرتدون ثياب النساء حال ذهابهم إليها، وأحياناً يتخذون بيوت العجائز الإباضيات مقرّاً لدروسهم.

ثالثاً- كان الإمام جابر كثير الحرص والتشدد في المحافظة على الدعوة والتكتم عليها؛ فكان- كما ذكرتُ- يطلب من أصحابه الدعاة في الأمصار أن يمحووا كل كتاب يصلهم منه، وأن لا يذكروا اسمه أو فتاواه بينهم^(٢)، وليس ذلك خوفاً على نفسه وإنما للمحافظة على دعوتهم.

أحمد: إني أكاد لا أصدق ما أسمعه عن تلك الطرق العجيبة التي كانوا يتخذونها لحماية أنفسهم ودعوتهم.

سعيد: وهل كان للإمام جابر بن زيد مؤلفات بجانب الدروس التي كان يلقيها؟

(١) حلية الأولياء، الأصفهاني، ج ٣، ص ٨٩.

(٢) الإمام جابر بن زيد، أبي داود، ص ١٠٠.



الأستاذ: إن الدرجة العلمية التي كان الإمام جابر يتمتع بها، وبحكم قُرْبِهِ من عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومصاحبته لكثير من الصحابة، وشعوره بواجب نقل العلم إلى الأجيال اللاحقة، صار هو وأصحابه من أكثر الفِرَق تَدْوِينًا للعلم^(١)، وتوزَّع علم الإمام جابر بين تلاميذه الذين انتشر المذهب الإباضي على أيديهم، من أمثال أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، وضمام بن السائب وغيرهم، وتم تدوين ذلك في مؤلفات لا يزال بعضها موجودًا إلى يومنا هذا، ومن أهمها **الجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب**، الذي حوى مئات الأحاديث التي يرويها عن شيخه الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ثم عن الإمام جابر.

وانتشرت رسائل الإمام جابر وفتاواه وأجوبته في أصقاع الأرض بين تلاميذه وأصحابه، إضافة إلى أنه كان من أول مَنْ شرع في التأليف، فيُذَكَّر أن له كتابًا ضخماً في الفقه والعقيدة والحديث يتكون من عشرة أجزاء، أسماه «**الديوان**»، ويقال إنه كان جُمْلَ بغير.

ناصر: وكيف لنا أن نطلع على هذا الكتاب يا أستاذي؟

الأستاذ: للأسف لم يصلنا شيء منه؛ فقد بقي الكتاب في حوزة تلميذه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ثم توارثه أئمة

(١) الفرق بين الإباضية والخوارج، أطفيش، ص ٢٥-٢٦.



الإباضية في البصرة إلى أن استقرَّ في مكتبة بغداد التي أحرقتها التتار فيما بعد، ويروى أن أحد علماء المغرب قام بنسخه وأحضره إلى جبل نفوسة في ليبيا^(١)، ولكن تلك النسخة ضاعت أيضًا، ويُذكر أنه عُثِرَ على جزء من الكتاب في إحدى مكتبات ألمانيا، ولعلَّ بعض المؤلفات المروية عن جابر بن زيد التي لا تزال مخطوطة هي قطع من ذلك السُّفَر الكبير.

محمد: ذكرت لنا يا أستاذي من تلقى عنهم الإمام جابر بن زيد العلم، ولم تذكر لنا أحدًا ممَّن اشتهروا من أصحابه وتلامذته.

الأستاذ: أحسنت يا محمد، ولكنني لم أذكر ذلك لأنه قد تلقى العلم عن الإمام جابر خلقٌ كثير، وجاءوا إليه من مختلف الأصقاع، ولكن تلبية لرغبتك فسأذكر نماذج ممَّن تعلَّموا على يديه ونبغوا من بعده؛ فمنهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، وضمَام بن السائب، وأبو نوح صالح الدهان، وحيان الأعرج، وكل هؤلاء فقهاء مجتهدون، وكان

(١) يروي الوارجلاني في سِيره أن نفاث بن نصر - مؤسس الفرقة النفاثية - قد وقعت له حادثة مع الخليفة العباسي هارون الرشيد في بغداد، وفيها طلب نفاث من الخليفة أن ينسخ ديوان جابر فأذن له، ولكن نفاثًا كانت بينه وبين إمام الدولة الرستمية أفلح بن عبد الوهاب عداء أدى به إلى دفن تلك النسخة من الديوان، خوفًا أن يطلبها الإمام منه. انظر: سِير الأئمة وأخبارهم، الوارجلاني، ص ٩٤، اللعة المضئئة، قشار، ص ٣٧-٣٨.



من أتباعه من تولى الولاية في الدولة الأموية مثل يزيد بن يسار الذي كان عاملاً على عمان، والنعمان بن مسلمة الذي كان والياً على بعض كور خراسان^(١)، ويكفي للدلالة على كثرة أتباع الإمام جابر أن أهل اليمن وحضرموت وعمان وخراسان كانوا من أتباعه، هذا بجانب أتباعه في البصرة والمدينة والبلدان القريبة منها، حتى إن الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي الذي تولى زعامة الإباضية في البصرة بعد موت شيخه أبي عبيدة مسلم قام بإحصاء أهل الدعوة في البصرة، فوجدهم يزيدون على ٨٠٠ ألف شخص^(٢).

سعيد: لقد ذكرت لنا يا أستاذي أن الإمام جابرًا كان يتردد بين البصرة ومكة المكرمة، فكيف تمكّن من ذلك مع كل الأعمال التي كان يقوم بها في البصرة؟

الأستاذ: يا سعيد: إن من باعوا أنفسهم لله، لا يهدأ لهم بال، ولا نفتر لهم همة؛ فقد كانوا رضوان الله عليهم يُنظّمون أوقاتهم بحيث لا تفوتهم لحظة واحدة لا يستغلونها في رضوان الله، وستعجبون إن قلت لكم إن الإمام جابرًا مع الأعمال الجليلة التي كان يقوم بها في البصرة، ورغم بُعد المسافة بينها وبين مكة المكرمة، كان يذهب للحج كل عام؛ حتى

(١) بحسب ما يذكره الإصطخري في كتابه «المسالك والممالك»، ص ١٦٧، فإن مصطلح «كور خراسان» يُقصد به اسم إقليم خراسان.
(٢) نفحات من السَّير، الجعبي، ص ٨.



إنه في أحد الأعوام تأخر عن موعد الحج، فعزم على ألا يفوته في ذلك العام، وكانت له ناقة تحمله في أسفاره، فركبها مُيَمِّمًا شطره نحو البيت الحرام، ولم ينزل عن تلك الناقة حتى وصل إلى مكة المكرمة، وعندما نزل منها خرَّت ميتة، ولذا يُدكَر أنه حج أربعين مرة.

ناصر: إذا كانت تلك هي منزلة الإمام جابر مع الناس، فكيف كانت منزلته عند أقرانه في العلم؟

الأستاذ: إن الإمام جابرًا وأقرانه لم يكونوا على طَرَفَي نقيض، وإنما كانوا أوجهًا لعملية واحدة؛ فكل واحدٍ من أولئك الأفاضل اختار طريقًا خاصًا به وبأتباعه لإرجاع الأمة إلى مسارها المستقيم، ولذلك لم يكن من المتوقع أن يصف الآخرون الإمام جابرًا بغير ما أتصف به من العلم والزهد والورع والتقوى، وسأذكر لكم ما قاله بعض أولئك العلماء عنه:

١ - كان عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ البَصْرَةِ نَزَلُوا عِنْدَ قَوْلِ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، لَأَوْسَعَهُمْ عِلْمًا عَنِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَرُبَّمَا قَالَ عَمَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ»^(١)، وكان يُحيل سائليه إلى تلميذه الإمام جابر، ويقول: «اسألوا جابر بن زيد، فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه»^(٢)، وكان - أحيانًا - يردُّ على من يسأله من أهل

(١) الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، ج ٢، ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٢) الطبقات، الدرَجِينِي، ج ٢، ص ٢٠٥.



العراق بقوله: «عجبًا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا
وعندهم جابر بن زيد؟»^(١)

٢- أما عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقد وصفه
بأنه من فقهاء أهل البصرة البارزين.^(٢)

٣- ولما توفي الإمام جابر قال الصحابيُّ الجليل أنس
بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد وفاته: «مات أعلم مَنْ على ظهر
الأرض»^(٣)، وقال قتادة بن دعامة السدوسي: «اليوم دُفِن
أعلم أهل الأرض»^(٤).

٤- وكان الحسن البصري يَكِلُ أمرَ الفتيا إليه في حال غيابه
عن البصرة، وكان يصفه بالفقيه العالم.

٥- وقال عنه عمرو بن دينار، وهو أحد العلماء اللامعين في
البصرة وأحد التابعين ورواة الحديث: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَعْلَمَ
بِالْفُتْيَا مِنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ»^(٥).

٦- وقال إياس بن معاوية- قاضي البصرة في عهد عمر بن
عبد العزيز-: «أَدْرَكْتُ الْبَصْرَةَ، وَمُفْتِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ

(١) المرجع السابق.

(٢) التاريخ الكبير، البخاري، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٣) الطبقات، الدرَجيني، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ١٢، ص ٤٥٩.

(٥) المعرفة والتاريخ، الفسوي، ج ٢، ص ١٣.



عَمَانَ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ»^(١)، ونُقِلَ عنه أيضًا: «لقد رأيتُ البصرة وما بها مُفْتٍ غير جابر بن زيد»^(٢).

٧- وذكره ابن القَيِّم في كتابه «إعلام الموقَّعين» ضمن فقهاء البصرة ومفتيها، واعتبره من أبرز علماء البصرة في عصره^(٣).

٨- وأثنى عليه علماء الجرح والتعديل، ولم يطعن في عدالته أحدٌ منهم، وقال عنه النووي: «واتفقوا على توثيقه وجلالته، وهو معدود في أئمة التابعين وفقهائهم»^(٤).

كذلك، كانت للإمام جابر مراسلات مع العلماء، يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ومن ذلك أنه أرسل إلى ابن شهاب الزهري رسالة يؤنِّبه على دخوله إلى بيوت الأمراء وتردُّده عليهم، خاصة عندما أصبح وزيراً للوليد بن عبد الملك، فكان من جملة مائة وعشرين فقيهاً راسلوا الزهري يؤنِّبونه ويُعيِّرونه بما فعل^(٥).

محمد: وماذا عن موقف الإمام جابر مع المخالفين؟

الأستاذ: كان نهج الإمام جابر بن زيد مع مخالفيه وفق تعاليم الإسلام؛ فلا تجد فيه من الشطط والغلو والتضليل والتكفير

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج ٧، ص ١٧٩.

(٢) الطبقات، الدرجيني، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٣) إعلام الموقَّعين، ابن القَيِّم، ج ٢، ص ٤٣.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات، النووي، ج ١، ص ١٤١.

(٥) الدليل والبرهان، الوارجلاني، ج ١، ص ٣١.



ما كان سائداً عند أصحاب الأهواء والفِرَق الأخرى آنذاك، وإنما كان موقف علماء الإباضية على مرِّ العصور - كما يقول الشيخ أبو إسحاق أطفيش رَحْمَةُ اللَّهِ - أنهم: «يعرضون الأحاديث على كتاب الله، فما وجدوه موافقاً قبلوه، وما خالف ردُّوه»^(١)، وفي هذا يقول الإمام السالمي عليه رحمة الله^(٢):

ونحنُ لا نطالبُ العبادا فوقَ شهادَتَيْهِمْ اعتقادا
فَمَنْ أتى بالجُمَلَتَيْنِ قُلنا إخواننا وبالْحَقوقِ قُمنَا
إِلا إذا ما نقضوا المقالا واعتقدوا في دينِهِمْ ضَلالا
قُمنَا نُبَيِّنُ الصوابَ لَهُمْ ونَحسَبَنَّ ذلكَ من حَقِّهِمْ

لذا، كان الإمام جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُجادل الخوارج بالحسنى، ويُبيِّن موطن الشطط والزَّيغ في تعاملهم مع غيرهم من المسلمين، وتشريكهم لأهل القبلة، وكان هذا أيضاً نهج أصحابه وأسلافه من بعده؛ فعندما ترك القائد المعروف هلال بن عطية الخراساني مذهب الصُّفْرية واعتنق الإباضية، وأراد الانضمام إلى جيش الإمام الجلندي بن مسعود، لم يرضَ الإباضية منه ذلك حتى يعود إلى قومه الصُّفْرية، ويُبيِّن لهم بطلان مبادئ الخوارج وآرائهم، ولما فعل ذلك صار قائداً ووزيراً للإمام الجلندي عليهم رحمة الله

(١) النقد الجليل، أطفيش، ص ٢٤.

(٢) جوهر النظام، السالمي، ج ١، ص ٦٦.



جميعاً^(١).

وقد أجاز الإمام جابر شهادة المخالفين والصلاة وراءهم، وتزويجهم والزواج منهم، وأكل ذبائحهم، وإذا انهمز موا في الحروب منع غنيمة أموالهم أو سبي نسائهم وذرائعهم أو أن يُتبع مدبرهم أو يُجهز على جريحهم، وقد ميّز هذا المنهج المعتدل الحركة الإباضية على امتداد القرون عن غيرها من الفرق، مما سهّل مهمة الإمام جابر وأتباعه في نشر الفكر الإباضي بين عموم المسلمين من مختلف القبائل والأمصار، وساعدهم كذلك على تطبيقه واقعاً عملياً على امتداد فترات التاريخ؛ فأبو حمزة الشاري رَحِمَهُ اللهُ خاطب أهل المدينة عندما تغلّب عليهم قائلًا: «يا أهل المدينة، الناس منا ونحن منهم، إلا مشرّكًا عابدًا وثن، أو مشرّكًا أهل الكتاب، أو إمامًا جائرًا»^(٢)، فهو رغم انتصاره عليهم لم يستيح دماءهم، ولم يُشركهم أو يُكفرهم.

والإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي عندما استولى على صنعاء، خيرّ الناس بين الانضمام إليه أو الحياد أو الخروج بأمان، ولم يستيح أموالهم التي كانت في خزانة الوالي الأموي، وإنما ردّ تلك الأموال إلى أصحابها،

(١) الفرق بين الإباضية والخوارج، أطفيش، ص ٧-٨.

(٢) تاريخ الطبري، الطبري، ج ٧، ص ٣٩٦.



أو وزَّعها على المحتاجين بالسوية^(١)، وفعل مثل ذلك الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، عندما أعطى الأمان لأهل مدينة طرابلس وواليتها حين دخوله إليها منتصراً^(٢)، وكذلك فعل أبو منصور إلياس - **عامل الإمام أبي اليقظان بن أفلح على جبل نفوسة** - لما هزم الجيش العرمرم للعباس بن أحمد بن طولون، ولم يستحلَّ الأموال العظيمة التي تركوها لكونهم موخِّدين لا تحلُّ أموالهم، فنهبها الأعراب من غير أهل نفوسة^(٣).

فأين كل تلك النماذج - وغيرها كثير - مما نسبه كُتَّاب الفِرَق والمقالات إلى الإباضية من أنهم يستحلُّون دماء مخالفيهم، ويستحلُّون غنيمة أموالهم^(٤)، والإباضية - بلا شك - بريئون من كل ذلك، وما كلام أولئك عنهم إلا نابغ عن جهلٍ وتعصُّب؟

أحمد: متى كانت وفاة الإمام جابر بن زيد يا أستاذي؟

الأستاذ: اختُلف في تحديد عام وفاته، والأغلب أنه توفي في عام ٩٣ للهجرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام -، وكانت وفاته في البصرة، ودُفن فيها.

(١) الحركة الإباضية، هاشم، ص ١١٥-١١٦.

(٢) سير الأئمة وأخبارهم، الوارجلاني، ص ٥٩.

(٣) اللمعة المضئبة، قشار، ص ٤٢.

(٤) الإباضية مذهب إسلامي معتدل، معمر، ص ٢١.



محمد: هل لك أن نخبرنا أكثر عن حياة هذا الإمام الكبير وجهاده يا أستاذي، فإني متلهّفٌ لسماع المزيد عنه؟

الأستاذ: بارك الله فيك يا محمد، ولكننا أتينا على معظم جوانب حياة هذا الإمام، والنفوس إن كَلَّتْ مَلَّتْ، ولا أريدكم أن تملوا فإن وراءكم مذاكرة دروس المدرسة، وجميلٌ أن تختتم لنا هذا الدرس بأبيات الشيخ العلامة أبي مسلم البهلاني حول ميزات الإباضية التي تُؤكِّد ما قلناه عن الإمام جابر وأصحابه.

محمد: حسنًا يا أستاذي. يقول شاعر العلماء وعالم الشعراء الشيخ أبو مسلم ناصر بن سالم بن عُدَيْم الرواحي السمائي في منظومته الطويلة (الفتح والرضوان في السيف والإيمان)^(١):

تعاقبت خلفاءُ الله مَنْصِبَها

مُنْذُ (الجلندي) وَخَتَمُ الكُلِّ (عزانُ)

أئمةٌ حُفِظَ الدينُ الحنيفُ بِهِمُ

مِنْ يَوْمِ قِيلَ لِدِينِ اللهِ أَدِيانُ

صِيدَ سِرَاءُ أباةِ الضَّيْمِ أُسْدُ شَرَى

شُمْسُ العَزَائِمِ أَوَاهُونَ رُهْبَانُ

(١) الآثار الشعرية، الحارثي، ص ٥٣٥.



سُفِنُ النَّجَاةِ هُدَاةَ النَّاسِ قَادَتَهُمْ
طُهِرُ السَّرَائِرِ لِلْإِسْلَامِ حَيْطَانُ
تَقَيَّلُوا مِدْحَ الْقُرْآنِ أَجْمَعَهَا
إِذَا اسْتَحَقَّ مَدِيحَ اللَّهِ إِيْمَانُ
جَدُّو إِلَى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ فَلَمْ
يُفْتَهُمْ فِي التُّقَى سِرٌّ وَإِعْلَانُ
عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ الزَّهْرَاءِ سَيْرُهُمْ
وَالْوَجْهَ وَالْقَصْدُ إِيْمَانٌ وَإِحْسَانُ
بِسِيرَةِ «الْعَمْرَيْنِ» اسْتَلَامُوا وَسَطُوا
لِشْرِبَةِ النَّهْرَوَانِ الْكُلُّ عَطْشَانُ
صُعْبُ الشَّكَايِمِ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ فَإِنْ
حَنَاهُمْ الْحَقُّ عَنِ مَكْرُوهِةٍ لَانُوا
مُسَوِّمِينَ لِنَصْرِ اللَّهِ أَنْفُسَهُمْ
أُرَوَّاحُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُرْبَانُ
سُبُقٌ إِلَى الْخَيْرِ عَن جَدٍّ وَعَن كَيْسٍ
دَانُوا النَّفُوسَ فَعَزَّتْ حَيْثَمَا دَانُوا
سِيمَاهُمْ النُّورُ فِي خَلْقِي وَفِي خُلُقِي
وَهَدَيْتُهُمْ سُنَّةً بِيَضَاءِ تَبْيَانُ



مُقَيَّدُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ حِكْمَتَهُمْ
وَهُمُّهُمْ حَيْثَمَا كَانَ الْهُدَى كَانُوا
هُمْ أَسْمَعُ النَّاسِ فِي حَقِّ وَأَبْصَرُهُمْ
وَفِي سِوَاهُ هُمْ صُمٌّ وَعُمَيَانُ
لَمْ تُلْهِهِمْ زَهْرَةُ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا
إِذْ هَمُّهُمْ صَالِحٌ يَتْلُوهُ رِضْوَانُ
بَاعُوا بِبَاقِيَةِ الرِّضْوَانِ فَانِيَهُمْ
كَأَنَّ لَذَّةَ هَذَا الْعَيْشِ أَوْثَانُ
وَقَفَّ عَلَى السُّنَّةِ الْبَيْضَاءِ سَعِيهِمْ
وَفِي الْجِهَادَيْنِ؛ إِنْ عَزَّوْا وَإِنْ هَانُوا
مَا زَايَلَتْ خَطْوَةَ الْمُخْتَارِ خَطْوَتُهُمْ
وَلَا ثَنَى عَزْمُهُمْ نَفْسٌ وَشَيْطَانُ
فَجَاهَدُوا وَاسْتَقَامُوا فِي طَرِيقَتِهِ
عَزُّوهُمْ لِيُصْرُحَ الدِّينِ أَرْكَانُ
وَسَلَّطُوا بِحُدُودِ اللَّهِ حُكْمَهُمْ
حَتَّى اسْتَقَامَ لِحُكْمِ اللَّهِ سُلْطَانُ
أَوْلِيكَ الْقَوْمِ أَنْوَارِي، هُدَيْتُ بِهِمْ
عُقْبَى مَحَبَّتِهِمْ عَفْوٌ وَعُفْرَانُ

أُنْمَتِي عُمَدَتِي دِينِي مَحَجَّتَهُمْ
 عَوْثِي إِذَا ضَاقَ بِي فِي الْكُونِ إِمْكَانُ
 لَا يَقْبَلُ اللَّهُ دِينًا غَيْرَ دِينِهِمْ
 وَلَا يَصِحُّ الْهُدَى إِلَّا بِمَا دَانُوا
 مِنْ عَهْدِ بَدْرِ وَأَحَدٍ لَا تُزْعِرُهُمْ
 عَنْ مَوْقِفِ الْحَقِّ أَزْمَاتٌ وَأَزْمَانُ
 حَقِيقَةُ الْحَقِّ مَا دَانُوا بِهِ وَأَتُوا
 وَمَا عَدَاهُ أَخَالِيطٌ وَخُمَانُ
 إِنَّ يَشْرُفِ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا بِثَرَوَتِهِمْ
 فَثَرَوَةُ الْقَوْمِ إِخْلَاصٌ وَإِيقَانُ
 لِلَّهِ مَا جَمَعُوا لِلَّهِ مَا تَرَكُوا
 لِلَّهِ إِنْ قَرُبُوا لِلَّهِ إِنْ بَانُوا
 أَزَكَى الصَّنِيعِينَ مَا كَانَ الْهُدَى مَعَهُ
 لَدَيْهِمْ، وَلَهُ فِي الْحَقِّ رُجْحَانُ
 تَرَاهُمْ فِي ضَمِيرِ اللَّيْلِ صَيْرَهُمْ
 مِثْلَ الْخَيْالَاتِ تَسِيحُ وَقُرْآنُ
 هُمْ الْإِبَاضِيَةُ الزُّهْرُ الْكِرَامُ لَهُمْ
 بِعِزَّةِ اللَّهِ فَوْقَ الْخَلْقِ سُلْطَانُ



لَا يُعْرَفُ الْعَدْلُ إِلَّا فِي اسْتِقَامَتِهِمْ

لَمْ يُوفِ - إِلَّا لَهُمْ - فِي الْعَدْلِ مِيزَانُ

الأستاذ: لا فُضَّ فوكَّ يا ابني، أبياتٌ جميلة ومعبّرة.

سعيد: نعم يا أستاذي، والحقيقة أن ما سمعناه منك في هذا الدرس عن الإمام جابر بن زيد يزيدنا شوقاً وتلهّفاً لسماع المزيد عن غيره من الشخصيات العظيمة.

أحمد: صدقتَ يا سعيد، ولا تنسَ أننا ندرس هذه الشخصيات لا لأجل المعرفة فقط، ولكن لتتخذها قدوة لنا، فكما تعلمون فإن شباب اليوم صار كلُّ واحدٍ منهم يُقلِّد أحد المشاهير، وأحرى بنا نحن شباب الإسلام أن نُقلِّد أجدادنا وعظماءنا الذين كانت شهرتهم تُطبِّق الآفاق.

ناصر: صدقتَ يا أحمد؛ فإن هذه الدروس تعطينا الدافع القوي لأنَّ نَحْدُو حَدْوَ أولئك العظام في همّتهم ونشاطهم وجهادهم وتضحياتهم، وتعطينا حافزاً لأن نُنقَّب عن سِيرِهِمْ، فلعلنا نصل إلى بعض ما وصلوا إليه، كما يقول الشاعر:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم

إن التشبّه بالكرام فلاح



الأستاذ: بَارِكُ اللهُ فِيكُمْ جَمِيعًا يَا أَبْنَائِي، وَأَرْجُو اللهُ أَنْ يُوَفِّقَنِي لِأَنْ أُعْطِيَ هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ الْعَظِيمَةَ وَلَوْ شَيْئًا يَسِيرًا مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الذِّكْرِ، وَالْأُمَّةِ فِي انْتِظَارِكُمْ لَكِي تُعِيدُوا لَهَا عِزَّتَهَا مَجْدَهَا، كَمَا صَنَعَهَا لَكُمْ أَجْدَادَكُمْ. لَقَدْ انْتَهَتْ جَوْلَتُنَا التَّارِيخِيَّةَ لِهَذَا الْيَوْمِ، وَبِإِذْنِ اللهِ سَنَأْخُذُكُمْ فِي الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ إِلَى مَوْقِعٍ آخَرَ لِنَسْرُدَ لَكُمْ حَيَاةَ شَخْصِيَّةٍ أُخْرَى. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ. سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ.



المراجع

- ١- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (المتوفى: ٣٧٠ هـ)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٢- إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، المعروف بابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- ٣- الإباضية مذهب إسلامي معتدل، علي يحيى معمر (المتوفى: ١٤٠٠ هـ)، الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٤- الآثار الشعرية لأبي مسلم البهلاني، محمد بن أحمد بن عبد الله الحارثي، الناشر: منشورات الجمل، بغداد، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠ م.
- ٥- الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، عوض محمد خليفات، الناشر: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة: الثانية.
- ٦- الإمام جابر بن زيد الأزدي وأثره في الحياة الفكرية والسياسية،



سامي صقر عيد أبي داود، الناشر: مطابع النهضة، سلطنة عمان،
الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.

٧- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي
البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله بن
عبد المحسن التركي، الناشر: هَجَر للطباعة والنشر والتوزيع
والإعلان، الجيزة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٨- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (المتوفى:
٢٥٦هـ)، إشراف: محمد عبد المعيد خان، الناشر: دائرة المعارف
العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٩- الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس
بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، المعروف بابن أبي حاتم،
الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ودار إحياء
التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

١٠- الحركة الإباضية في المشرق العربي، مهدي طالب هاشم،
الناشر: دار الاتحاد العربي للطباعة، الأردن، الطبعة: الأولى،
١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١١- الدليل والبرهان، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني
(المتوفى: ٥٧٠هـ)، تحقيق: سالم بن حمد الحارثي، الناشر:
وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة: الأولى،
تاريخ النشر: ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.



- ١٢- السَّيْر، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي (المتوفى: ٩٢٨هـ)، تحقيق: أحمد بن سعود السيابي، الناشر: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر: الجزء الأول: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، الجزء الثاني: ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ١٣- الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي، المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.
- ١٤- العقود الفضية في أصول الإباضية، سالم بن حمد بن سليمان الحارثي، الناشر: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة: الثانية، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
- ١٥- الفَرْق بين الإباضية والخوارج، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، الطبعة: الرابعة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- ١٦- اللمعة المضيئة في تاريخ الإباضية، بالحاج عدُّون قشار، الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ١٧- المعرفة والتاريخ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي (المتوفى: ٢٧٧هـ)، تحقيق: أكرم ضياء العمري، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١٨- النقد الجليل للعتب الجميل، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٩- تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، الناشر: دار التراث، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٨٧هـ.

٢٠- تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.

٢١- تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.

٢٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٩٨٥م.

٢٣- طبقات المشائخ بالمغرب، أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (المتوفى: ٦٧٠هـ)، تحقيق: إبراهيم طلاي، الناشر: مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.



٢٤- كتاب سِير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا، أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني (المتوفى: ٤٧١ هـ)، تحقيق: إسماعيل العربي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٢٥- معارج الآمال على مدارج الكمال بنظم مختصر الخصال، نور الدين أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي (المتوفى: ١٣٣٢ هـ)، تحقيق: الحاج سليمان بن إبراهيم بابيز و آخرون، الناشر: مكتبة الإمام نور الدين السالمي، ولاية بديّة، سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠ م.

٢٦- نفحات من السَّيَر، فرحات بن علي الجعبيري، تاريخ النشر: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.